الفصل الثانى

الحق فى الحياة ومناط المسؤولية

المبحث الأول

التناقض بين سلبيات الإنسان وتكريمه

الدروس والحكم التى نخلص إليها من تدبر القرآن الكريم لا تنتهى، وهذا هو أحد الفوائد الظاهرة من حث القرآن للناس على التفكر والتدبر، وهذا التفكر والتدبر وإعمال العقل لابد بالغ بصاحبه إلى الهداية العقلية المضمونة.

فى هذا السياق ، نعالج نقطة واحدة بالغة الأهمية وهى أن الأوصاف الأخلاقية للإنسان تتناقض تماما مع حسن الخلقة، لأن الخلقة عائدة إلى الخالق فتبارك الله أحسن الخالقين. ولكن الأخلاق اختبار الإنسان بالعقل، حتى أن علاقته بالله لا يجرؤ حاكم فى دنيانا على أن يعطى حرية مطلقة لمحكومين فى قبوله أو رفضه مع الفارق المطلق بين الله الخالق الرازق المصور، وبين المخلوق الذى قدر له أن يكون حاكما. وإنى لأعجب أن أول من نقض هذه الحقيقة هم بعض المشتغلين بالدراسات الدينية أو المشايخ الذين يتخذون من مواقف الخلط بين الدنيا والآخرة سبيلا لبيع الآخرة وشراء الدنيا.

إذا حصرنا الأخلاق السلبية فى الإنسان لما وقعت تحت حصر فى نصوص القرآن الكريم ولكن الغالبية الساحقة من هذه النصوص تشير إلى عقوق الإنسان بربه الذى خلقه فسواه فعدله فى أحسن صورة ما شاء ركبه، ورغم أنه من سلالة من طين ومن ماء مهين، فإذا هو لربه خصيم مبين، فبدلا من أن يتخذ الشيطان عدوا كما أمره الله، فإنه يعادى ربه وينكر آياته، إنه لظلوم كفار.وحتي عندما عرض الله الأمانة وهي حرية الإيمان أو الكفر علي السموات والأرض والجبال وهي لاتقارن بقوتها بالإنسان ولم تعرض عليه بادر الإنسان بحمل هذه الأمانة فأشفق الله عليه بقوله إنه كان ظلوما جهولا. فالتناقض فى المرتبة بين مادة الخلق وعظمة الخالق ودقة الخلق وإتقانه، هو تناقض بين أخلاق الإنسان، والإحسان الإلهى إليه.

ولأن الله لو أراد لجعل الناس كلهم مؤمنين، فإن الله يعلم الإنسان احترام العهد حتى لو قطعه خالق لمخلوق، وهو عزيز ذو انتقام.

الخلق والرزق وتسخير كافة المخلوقات، وتمييز الإنسان على الملائكة واختصاصه دون الملائكة بالخلافة فى الأرض ومد يد الله له بالغفران فى كل وقت إذا آب إليه دون قيد ولا شرط، حمله الله فى البر والبحر وكرمه وأحسن إليه، ورغم ذلك لا يستميل الله الإنسان أو يمن عليه، ولكنه سبحانه يحب أن يأتيه العبد حبا وتعلقا بعقله واقتناعه، مع احترام إرادته إذا كفر، فعلى الله رزقه وعدله وحسابه. ولذلك يلح السؤال، لماذا يختار الإنسان رغم كل هذه الخيرات التى من الله بها عليه، أن يكون لله خصيما مبينا، مراوغا لئيما رغم أنه يعلم أن الله محيط به ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.ومن بليغ أوصاف الله للانسان ﴿ **إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا(١٩)إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا(٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا** ﴾، خلق الانسان ما أكفره الخ.....

هناك درسان فى هذه المفارقات. الدرس الأول، هو أن انحطاط طبيعة الإنسان وأخلاقه المنحرفة، والتى يقابلها نعم الله واستعداده الدائم للغفران والفصل بين الرزق، وبين الإيمان أو الكفر، حتى يخجل الإنسان من نفسه ويترفع على انحطاطها ويحاول أن يكون فى نور الله وحضرته السامية حتى ينجو من السقوط فى مهاوى طبيعته. فهذا تكريم إحسان من الله للإنسان وليس تكريم استحقاق. غير أن التكريم الإضافى وهو الدرس الاضافى عندما يخالف الإنسان طبيعته ويستعلى على نقائصه فيقاوم قانون الجاذبية الذى يشده إلى الأرض والسقوط، ويسبح عكس التيار متحديا قانون الجاذبية أملا في رفق الله وإعانته لثقته في طريقه وحسن ظنه بخالقه (الأحاديث القدسية من تقرب مني ..... وإن الله يمد يده بالليل.....).

الدرس الثانى هو أن الله كرم آدم وميزه على الملائكة تمييز إحسان لا استحقاق، ولكن الله أراد أن يجمع الإنسان بين تمييز الإحسان من الله وتمييز الاستحقاق من الله أيضا وهو العلم، وأن يكون العلم بالقراءة والكتابة فى اقرأ والقلم، وفى ربط العلم بالإيمان. والجمال فى هذه الصورة المعقدة هو أن الإنسان الحر ذا الاخلاق الهابطة بحكم خلقته هو الذى يهتدى إلى الحق بعقله الذى يغذيه بالعلم الصحيح فيصل إلى الحقيقة العليا ويترفع عن دنايا الدنيا ويتخذها مزرعة للآخرة كما قال على بن أبى طالب.

فإذا كانت الدنيا دار لهو ولعب وهى فى الآخرة ليست إلا متاع الغرور، إلا أنه لا آخرة بلادنيا، ولا دنيا بلا إحياء للدين.

الاستغلال السياسى لعلاقة الدنيا بالآخرة فى النسق القرآنى:

رسم القرآن الكريم صورة الدنيا وصورة الآخرة، وأوضح لنا أن هذه الحياة الدنيا هى المقدمة الضرورية للآخرة وبغيرها لا آخرة لمن لادنيا له. ولكى يشرح القرآن علاقة الدنيا بالآخرة ركزعلى أن الدنيا مجرد معبر يترتب على أداء الإنسان فيها وضعه فى الآخرة، وحصن الإنسان بكل المعلومات التى تجعل دنياه مدخلا مريحا لآخرته بأن يعطى لكل منهما حقها وأن يستمتع فى الدنيا بالقواعد التى وضعها الله حتى يظفر بالآخرة. لذلك كانت الأحاديث وأقوال الصحابة والصالحين تؤكد هذه الحقائق، ومن أبلغ من عبر عن وظيفة الدنيا على بن أبى طالب كرم الله وجهه حين أكد أن الدنيا مزرعة الآخرة، فأنت تحدد نوع الثمار التى تريد أن تظفر به فى الآخرة إذا أحسنت اختيار البذرة وتعهدتها بالرى والمتابعة وأنت موقن أنك راحل لا محالة، كما أنك موقن أن هذه القواعد مطلقة وبحجية مطلقة لا تقبل احتمالا ،وجدت كل شيء محضرا.

من ناحية أخرى، حرص القرآن الكريم على وضع الكوابح التى تمنع الإنسان من أن ينخرط فى الدنيا وملذاتها بما يضيع آخرته فالمتعلق بهذه الدنيا الفانية وبمظاهرها من الأموال والأولاد والمناصب وغيرها مما يحرص الإنسان عليه فيها إلى زوال، وحسم القرآن الكريم المسألة بقوله تعالى ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ**﴾ ، ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾ ، ﴿**وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾.

فهناك فرق بين التمتع بالدنيا فى حدود ما شرع الله استثمارا للآخرة، وبين نسيان الآخرة والاستغراق فى الدنيا. ﴿**فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾

ولذلك حفلت آيات الذكر الحكيم بالتأكيد على أن هذه الدنيا إذا قورنت بالآخرة فهى لا تساوى جناح بعوضة. هذا التحقير فى الدنيا لمنع التعلق بها ونسيان الآخرة هو فى مجال المقارنة بين متاع الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وأعظمها أنه إذا كان المؤمن يوقن بأنه إن لم يكن يرى الله فإن الله قطعا يراه لأن الإنسان يحمل الروح التى تسير الجسد وهى روح الله سبحانه، واستعلى على متاع الجسد المخالفة لشرع الله مرضاة لله وطمعا فى الآخرة، فإن هذا المؤمن يرى الله فى الآخرة ويكلمه الله، أما من أنكر الله فى الدنيا ولم ينتظر الآخرة وغفل عنها، ولم يسعى لها سعيها، فإن الله لا يكلمه ولا ينظر إليه يوم القيامة.

وحرص القرآن على توجيهنا إلى أن حياتنا فى الدنيا مهما طالت، لا تقارن بأبدية الآخرة، وأنه مهما توفر لنا من نعيم الدنيا، فإنها لا تقارن بنعيم الآخرة. هذه المقارنة فهمها البعض ومن فى قلبه مرض أن القرآن يحقر شأن الدنيا فلا قيمة لها، وتجاهل أنه لاآخرة لمن لادنيا له.

ترتب على هذا الفهم خمسة نتائج خطيرة :

الأولى هى أن بعض الفرق الدينية كالمتصوفة دعوة إلى الزهد فى الدنيا بمعنى سلبى، وفسروا حديث المعصوم نبينا عليه الصلاة والسلام إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده تفسيرا سلبيا ومثال التقابل فى فهم الحديث ما ذهب إليه الإمام مالك من معنى سلبى، وما ذهب إليه إمام مصر وفقيهها الأكبر الليث بن سعيد ، علي خلاف ذلك.

النتيجة الثانية موقف السلطة فى بعض الدول الذين استأثروا بالدنيا وترقوا الآخرة لغيرهم تحت عنوان لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين بينما

ترى الأوساط الإسلامية أن الإسلام دين ودنيا. بل أن تزهيد الناس فى الدنيا قيل أن هدفه أن يظفروا بالجنة وتتحدد مراتب الجنة بقدر معانة الناس فى دنياهم وبذلك يثاب من تسبب للناس فى دخولهم الجنة فيظفر الجميع بالجنة، الناس لمعانتهم والحاكم لنيته فى إدخالهم.

النتيجة الثالثة أن موقف إسرائيل من المقاومة استند إلى مقولات دينية حيث انكب الباحثون الإسرائيليون فى البحث عن أسس قرآنية لتشويه شهداء المقاومة الفلسطينية يوم كانت العمليات المقاومة ضد إسرائيل هى المعادل الفلسطينى للسلاح النووى وقبل أن يموت شباب مسلم فى أعمال عبثية فى عمليات تسميها داعش والنصرة عمليات استشهادية.

انتهى التحليل الإسرائيلى إلى أن الشباب الفلسطينى المسلم (مع أن المقاومة ضمت غير المسلمين) الذى لا سبيل أمامه لحياة طيبة له أدرك أن المهم هى الآخرة خاصة إذا ذهب من الدنيا إليها بعمل يجعله شهيدا. فالشاب الفلسطينى لا يبحث عن الدنيا ولا يسعى إليها، وإنما يمتثل لدينه الذى فسره الصهاينة بأنه يحث على الخروج من هذه الدنيا الضيقة الصعبة المؤقتة إلى دار الخلد والنعيم، فالتمس الشهادة . هذا التقابل بين الشاب الفلسطينى والشاب الإسرائيلى الذى يتمتع بصداقاته وأوقاته فى البارات يستكثر الشاب الفلسطينى "الحقود" على الشاب الإسرائيلى أنه سعى فى الأرض والتمس نعيمها إلى مرتبة الشهيد فى الآخرة.

والتوصية التى خرجت بها بعض الدراسات الصهيونية هى أنه يجب العمل على تعظيم الدنيا عند الفلسطينيين خلافا لدينهم وقرآنهم ، حتى يحرصوا

عليها ويقتربوا من الإسرائيليين معا من أجل الحياة، بدلا من الموت لطرف والحياة لطرف آخر. وهذا هو أساس المعالجة الاقتصادية للمشكلة الفلسطينية التى تقدمها إسرائيل والغرب وإغفال الجانب السياسى المتصل بحق هذا الشعب والوجود على أرضه.

وبذلك تريد الدراسات الإسرائيلية أن تعكس فهمها للقرآن بتحريف معانيه والتأكيد على أنه يحتقر الدنيا فتهون فى نظر الفلسطينى أملا فى الآخرة، كما تخلص إلى ضرورة خلق دنيا مشتركة للإسرائيلى والفلسطينى حتى لو كان الفلسطينى فيها عبدا لسيده الصهيونى الذى يملك بقاءه فى الدنيا أو إرساله إلى الآخرة، دون أن يأخذ الفلسطينى زمام المبادرة بنفسه إلى الآخرة ويتقرب بها بعمل فدائى ضد الشاب الصهيونى، فيظفر بالجنة. وهكذا ضن الصهاينة على شباب فلسطين بدنيا كريمة وأخرة خالدة ناعمة فى آن واحد. وفي تقديري أن انتفاضة السكاكين منذ عام ٢٠١٥ والتي افلتت من الطائفية الفلسطينية الضيقة هي في الواقع تمثل تحديا لهذه الثنائية ولم يعد الشاب الفلسطيني يأمل في أي حياة مع الإبادة الإسرائيلية .